ليبيا .. إلى أين ؟

ما ذُكِرَ اسم ليبيا على مسمع الجيل الحاضر من المسلمين إلاّ واقترن في أذهانهم بمعاني الجهاد في سبيل الله ، والاستشهاد من أجل دينه وتحرير المسلمين من المستعمر الخارجي ، ممّا تمثّل في طريق عمر المختار البطل المسلم المجاهد حتى اختاره الله فأكرمه بالشهادة وفي الثمانين من عمره .. وقبل أن يخرج المستعمر الإيطالي من ليبيا ، ولكنْ لا يكاد يشكُّ مؤرّخٌ موضوعي بأنّ جهاد عمر المختار هو الذي خطّ طريق الاستقلال لشعبه .. بالدماء

تلك صفحةٌ مضيئة في وجه ليبيا ، يمتزج نورها بنور صفحاتٍ مضيئة مماثلة لبقية أقطار الوطن الإسلاميّ الكبير في تاريخه الحديث ، ولكنْ لا يكاد يُذكَرُ اسم ليبيا اليوم في أيّ مكان ، وبأية مناسبة ، إلاّ وتساءل العدو والصديق على السواء : إلى أين ؟ ..

وقد ينظر العدو إلى ما يجري في ليبيا ويطرح هذا السؤال ، ساخراً حيناً ، ضاحكاً مما يجري حيناً آخر ، أو مطمئناً إلى مستقبل المخططات المعادية للإسلام والمسلمين حيناً ثالثا .. أما المسلم المخلص لليبيا فيطرح نفس السؤال والمرارة تحزّ في أعماق نفسه : إلى أين ؟ ..

عشرة أعوام مرّت بعد الانقلاب العسكري على الملك إدريس السنوسي ، وبقي السؤال ملحّاً كما كان : إلى أين ؟

ويزداد الشعور بالمرارة ، لأن كثيراً من المخلصين قد انخدعوا في بداية الطريق ، عندما استمعوا إلى الشعارات المرفوعة من خلال حسن نواياهم هُم ، ونظروا إلى بعض ما يجري دون البعض الآخر ليفسّروه ويؤوّلوه من خلال صفاء طويّاتهم هُم .. وظنّوا شعار الإسلام هو الإسلام ، بل ورأى بعضهم الأدلّة على عكس ذلك ، واستمرّ يحاول إقناع نفسه بأنه الإسلام وإنْ رافقه بعض الزلل .. حتى انكشفت الأمور على أوضح ما يكون ، وتبين أن طريق ليبيا الحالي يمكن أن يؤدّيَ إلى كل شيءٍ ممكن ، ما عدا ما يتطلّع إليه المخلصون من قيام الحياة الإسلاميّة القويمة والحكم الإسلاميّ الرشيد .. ولكن إلى أين ؟ ..

يبقى السؤال ، وتبقى في ظلّه أمورٌ ثابتة لم تعد تحتاج إلى نقاشٍ ولا جدال ، أوّلها أن الحكم القائم في ليبيا قد عطّل السنة النبوية الطاهرة نظرياً وعملياً ، وعطل بذلك وبسواه العمل بالقرآن الكريم على الصعيد التطبيقي .. ولا طائل من مناقشة هذه النقطة بالذات ، فحكم الإسلام فيها بيّنٌ واضح ، من أنكر السنة على علمٍ بما يفعل فهو مرتدّ

ومن أنكرها جاهلاً وجب عليه التعلّم ، ولكنّ جهله لا يعذره فيما يفعل ، ولا يُسقط عنه المسؤولية إزاء شعبٍ مسلم ، وبلدٍ مسلم ، ومستقبل الإسلام والمسلمين ..

والنقاش يجعل القضية وكأنها قابلةٌ للنقاش ، ويلفت النظرَ عن غير قصد عن حقيقة المشكلة القائمة في ليبيا ، والتي تبرز أوّل ما تبرز في أنّ الحكم القائم فيها من حيث الأساس لا يختلف عن أنظمة الحكم القائمة في معظم البلاد الإسلاميّة هذه الأيام ، بعيداً عن شرع الله ، بعيداً عمّا أنزل الله ، بعيداً عمّا أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ .. وقد يشترك نظام حكم ليبيا مع بعض تلك الأنظمة في رفع شعاراتٍ إسلاميةٍ المظهر للتستر وراءها ، وللإمعان في تضليل عامْ المسلمين من خلالها ، وقد يشترك مع بعض تلك الأنظمة في الميل الأكبر للكتلة الشرقية من دون الكتلة الغربية .. ولكنّه يتجاوز بعضها بالتصريح العلني التنكر للعمل بالسنة المطهّرة ، ويختلف عنها جميعاً ببقاء السؤال المطروح حوله: إلى أين ؟ ..

ذاك نظامُ حكمٍ شرقيّ الاتجاه ، يعلن الماركسية أو يتستر وراء مختلف الأقنعة ، وذاك نظامٌ غربي الاتجاه ، يغلب عليه التمسّح باسم الإسلام مع الارتباط الأكبر بالغرب ورأسماليته .. أما ليبيا .. فتطرح على المسلمين مسمّيات جديدة ، وتتبع طرقاً وأساليبَ جديدة ، ولو أن القضية قضية فردٍ أو أفراد أو حتى قضية حزبٍ من الأحزاب أو حركةٍ من الحركات ، لهانت بعض الشيء ، ولكنها قضية شعب تتيه به تلك المسمّيات والأساليب في شتّى المتاهات ، وقضية بلدٍ مسلم ما فيه من خيراتٍ وطاقات ، تجرّه تلك المسمّيات والأساليب إلى مستقبلٍ أبرزُ ما يتضح منه ، أنه مجهول المعالم ، لا تُعرَف له هويّة ، ولا يُتوقّع فيه استقرار .. فيبقى السؤال : إلى أين ؟ ..

إلى أين يسار بليبيا مع النظرية الثالثة ، في عصر الجماهيريات ، ووراء الكتاب الأخضر ؟ ..

إلى أين يسار بشعب ليبيا ابتداءً بما يسمى بالديمقراطية المباشرة ، ومروراً باللجان الثورية واللجان الشعبية ولجان العنف الثوري والمؤتمرات الشعبية الصغيرة والكبيرة ، وانتهاءً -مؤقتاً- باحتلال السفارات بعد احتلال المصانع والمساكن والجامعات ؟ ..

إلى أين يسار بأرض ليبيا ، بطاقاتها وثرواتها واقتصادها ، وراء اشتراكيةِ (شركاء لا أجراء) ، و(البيت لساكنه) ، و(الأرض لا يملكها أحد) .. بعد إعلان أن (القومية هي الإنسانية) وأن (الدين دين العرب) ، ومع إثارة الحملات بعد الحملات ، وسط فورةٍ هائجة تلي الأخرى ، ابتداءً من إدارة عمّال المستشفيات لشؤون التطبيب وتأمين الدواء ، ومروراً بالحملة الإرهابية على خطباء المساجد والعلماء ، وانتهاءً -مؤقتاً- بتكوين (جيشٍ أخضر) يُجنّد له الشباب بلا ميزانٍ ولا نظام ولا ضابطٍ من الضوابط ؟ ..

لو أردنا الاستمرار في التساؤلات لما انتهينا ، ولو أردنا الاستشهاد ببعض الوقائع التفصيلية المضحكة المبكية لبلغ منّا العجب مداه .. ولسنا من الذين ننساق وراء حملاتٍ إعلامية دعائية داخلية أو عدائيةٍ خارجية ، كما أنّنا لسنا ممّن يقبلون الانسياق وراء كلّ جديد لمجرد كونه جديداً مهما كان خطير النتائج وخيم العقبات ، ولا من الذين يرفضون كلّ جديد لأنه جديدٌ دون النظر فيه وإدراك أبعاده .. ولا نريد التفصيل في كلّ صغيرةٍ وكبيرة خلال هذه الوقفة العاجلة مع ليبيا بعد مرور عشرة أعوام على انقلابها العسكري ، إنما نعود لأصل القضية ، ونتساءل عن نوع هذا الحكم القائم تحت شعار (حكم الشعب لنفسه حكماً مباشراً) ، باسم النظرية الثالثة وعصر الجماهيريات والكتاب الأخضر ..

أمّا أنَّ هذا الحكم ليس هو الحكم الإسلاميّ المنشود ، فأمرٌ مفروغ منه في نظر كل مسلم يقدّر الأمور بتجرّد وموضوعية ، انطلاقاً من كتاب الله عزَّ وجلّ .. ولكن طالما أنه ليس (حكم الله كما أمر الله) ، هل هو فعلاً (حكم الشعب كما يريد الشعب) ؟ ..

وهنا أيضاً لا حاجة إلى تفصيلٍ طويل .. بل ننظر إلى الأمور من زاويتين ، الزاوية الفكرية ، والزاوية التطبيقية ؟..

هل الفكر القائم وراء الحكم الممارس هو فكر الشعب بمجموعه أم في فكر فردٍ من أفراده ؟ ..

وهل لأيّ فرد من الأفراد حق الوصاية على الشعب ، وهو يرفض في نفس الوقت أن يكون (للمجالس النيابية المنتخبة) أو (الأحزاب الشعبية) مثل ذلك الحقّ ؟ ..

إنه لينتقد أشد انتقاد سائر الأنظمة القائمة في عالمنا اليوم محقّاً في غالب أقواله ، بأنها أنظمةٌ دكتاتورية مقنّعة تحت مختلف الأقنعة ؟ .. فماذا يقال في فكر فردٍ يقول عن فكره إنه (ليس محلّ نقاش أو خلاف) وإنه (لا يختلف عليه اثنان عاقلان) ، وإنه ليس هناك تصوّر آخر لمجتمع ديمقراطي على الإطلاق غير هذا التصوّر) ؟ وإنه الفكر الذي به (تنحل مشكلة إدارة الحكم **بداهة**) ؟ .. وهذا ممّا ورد في الصفحات 29 و30 و48 و33 من الفصل الأول من الكتاب الأخضر ..

إنه فكرٌ فردي ، أوجده فرد ، واعتبره فكراً مطلقاً بالبداهة ، وحرّم النقاش حوله ، ومضى إلى ممارسة الوسائل والأساليب المختلفة لتطبيقه في حكم الشعب ؟ .. فهل هناك أبعد من هذه الدكتاتورية الفردية الفكرية في الحكم ؟ ..

وما يقال في القضية من زاوية فكرية يقال من الزاوية التطبيقية .. فكلّ ما جرى ولا يزال يجري في ليبيا يجري بإيعازٍ من الأعلى ، حتى المؤامرات الشعبية واللجان ذات المسمّيات المختلفة ، صدر الأمر بتكوينها من الأعلى ، ولو أريد استبدالها بسواها فليس يوجد أمام الحاكم مانعٌ واقعي يحول دونه ودون ذلك متى شاء وكيفما شاء .. ولكل فردٍ في ليبيا الحقّ والحرية ، لقول ما يريد ، والمطالبة بما يريد ، وانتقاد ما يريد ، نعم .. ولكن شريطة ألاّ يقول ما يناقض

فكر الحاكم ، ولا يطالب بغير ما أوجده الحاكم ، ولا ينتقد ما يستقر عليه رأي الحاكم ، فهل هذا حكم الجماهير أم حكم الحاكم الدكتاتوري ؟ ..

وما الفرق بين هذه الصورة التطبيقية للحكم وبين الصور المختلفة لأنظمة الحكم الدكتاتورية ، تحت شعارات الديمقراطية الغربية كما هو الوضع في مصر ، أو تحت شعارات الماركسية الشرقية كما هو الحال في عدن ، أو تحت شعارات (أمارة المؤمنين) كما هو الحال في الرباط ؟ ..

ما الفرق بين هذا الحكم الدكتاتوري وسواه ، إلاّ استبدال اسم (المجلس النيابي) باسم (المؤتمر الشعبي العام) ، واسم (خلايا الحزب الواحد) باسم (اللجان الثورية والشعبية والعنف الثوري) ، واسم (الملك أو رئيس الجمهورية) باسم (الأمين العام) .. ..

أمّا الإسلام فيعرفه المخلصون في ليبيا وسواها ، إنّه دين الله المنـــزّل على قلب محمد ﷺ ، قرآناً وسنّة ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بالحق ..

مصادره بيّنة ، وأسسه بيّنة ، وطريقه المستقيم واضحٌ وكل ما سواه هو من السبل المتشعبة التي لا ترضي الله عزَّ وجلَّ ، ولا يستقرّ عليها أمر المسلمين بحال من الأحوال ..

إنه دين الحريّة الحقيقية بالعبودية لله وحده ، وتَقَبُّل شرعه وحده .. وكلّ ما سوى ذلك فهو مقبولٌ أو مرفوضٌ بميزان الإسلام وحده

إنه دين الكرامة الإنسانية ، والحقوق المصانة ، ووحدة المؤمنين جميعاً ، عربيّهم وأعجميهم ، أسودهم وأبيضهم ، على الأخوة والتكافل والتعاون ..

إنه دين العدالة الإلهية التي لا يظلم بها إنسان ، والمساواة الحقيقية التي لا تفاضل فيها إلاّ بالتقوى ، والجهاد في سبيل الله لتبليغ دعوتَه ، وحماية شريعته ، ورفع كلمته في الأرض والخلق ..

إنه دين الخير ، كل الخير ، للبشرية جميعاً ، ودين الفوز الأكبر برضوان الله وجنّة الخلد لمن آمن به واتبعه ..

وإننا لنطالب حكام ليبيا بما نطالب به حكام المسلمين جميعاً ، بالعودة إلى الإسلام كما أنزله الله ، وإقامة الحياة الإسلاميّة والحكم الإسلاميّ على القرآن العظيم والسنّة المطهرة .. وإننا على يقين ، بأن أبناء الإسلام في ليبيا وفي كل مكان ، إذا رفعت عنهم القيود وأعيدت إليهم الحريات والحقوق ، فأبصروا واقعهم وزالت الحوائل المانعة بينهم وبين معرفة إسلامهم ، فلن يختاروا سوى الإسلام منهجاً للحياة والحكم ، يسيرون به قدماً على طريق رسول الله ﷺ إلى الحرية والكرامة والوحدة والتقدّم والنصر المؤزّر والفوز الكبير

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام : 153]